الفقهاء الأربعة للأطفال

الإمام أبو حنيفة النعمان

فقيه العراق، وإمام أهل الرأي

محمد ابراهيم سليم

سليم ؛ محمد
الإمام أبو حنيفة النعمان : تأليف محمد إبراهيم سليم
القاهرة: دار الطلائع للنشرو التوزيع ، ٢٠٢١.
٤٨ ص ؛٢٤سم
سلسلة الفقهاء الأربعة للأطفال
تدمك: ٤ ٩١٥ ٢٧٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - قصص الأطفال
أ - العنوان
٨١٣,٠٢

رقم الإيداع: ٢٠٢١/١٥٤٨
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 277 - 915 - 4

تصميم الغلاف الفنان: زكريا عبدالعال

٥٩ شارع عبد الحكيم الرفاعي -
خلف التوحيد والنور - مدينة نصر - القاهرة
تليفون: ٢٢٧٤٤٦٤٢ (٢٠٢+)
تو فاكس: ٢٣٨٩٦٦٤٩ (٢٠٢+)
E-mail : info@altalae.org
Web site: www.altalae.org

جميع الحقوق محفوظة
للناشر
يحظر طبع أو نقل أو ترجمة أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب دون إذن كتابي سابق من الناشر، وأية استفسارات تطلب على عنوان الناشر.
© 2021

بسم الله الرحمن الرحيم

فى صحبة الإمام

وهل هناك أجمل من أن تتاح لك الفرصة لتعايش معنا «**إماما**» من أئمة الفقه الإسلامي؟!

..فعلى صفحات هذا الكتاب نقوم برحلة فى «**نفق الماضي**».. نجتاز الزمان و المكان.. إلى عصر «**الإمام الأعظم**» أبى حنيفة النعمان!

إنه أحد الأئمة الأربعة..أصحاب المذاهب الكبرى فى الفقه الإسلامي التى ما زالت كنزا للمفتين و الفقهاء حتى الان!

وهو صاحب «**مدرسةالرأي**» فيما لا دليل عليه من سنة أو قرآن!

وإذا كنا نعيش فى «**القرن الخامس عشر الهجري**»، فلا عجب أن نرحل فى «**نفق الماضى**» حتى نكون على مقربة من نهاية القرن الأول العجرى!! فمن لا ماضي له لا حاضر له! ومنه ننطلق لبناء الحاضر!

وسوف يتوفق بنا «**قطار الزمن**» عند سنة 80هـ لنشهد مولد «**الأمام**» بالكوفة إحدى مدن العراق.

والكوفة آنذاك تموج بالناس من جميع الأجناس!

وعندئذ نكون قد وضعنا أقدامنا على أول الطريق.. «**طريق الأئمة**»، ليكون لنا لقاء مع الإمام الأعظم «أبى حنيفة النعمان!، وهناك ما يلفت الأنظار على جانبى الطريق:

- ها هى ذى لافتة تقول:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم
إن الـتـشـبـه بـالـرجـال فـلاح

• وأخرى تقول:

لـيـس بـإنـسـان ولا عـالم
مـن لم يـع الـتـاريـخ فى صـدره
مـن درى أخـبـار مـن قبله
أضـاف أعـمـارا إلى عـمـره

وأراك تقول:

كل شئ معد فيها نبدأ.. وما أجمل صحبة الإمام!!

الإمام أبو حنيفة فى سطور

- فقية العراق..
- وقدوة أهل الرأى..
- وصاحب المذهب المقضي به الآن فى أكثر الدول الإسلامية!
- ولد سنة ثمانين هجرية، من سلالة فارسية!
- ونشأ بالكوفة.
- وعاصر بعض الصحابة، وإن كان لم يلقهم!
- واشتغل بالفقه.
- وأخذ كل علمه عمن شافه الصحابة، ونقل عنهم.
- واستنبط فقهه من القرآن الكريم!!
- وما صح عنده من الحديث الشريف ـ على قلته.
- مع استعمال الرأى والقياس..
- وتابعه فى ذلك أكثر أئمة العراق ؛ لقلة رواة الحديث الصحيح بينهم، وكثرتهم فى الحجاز.

• وكان من أعبد الناس، وأكثرهم تهجدا، وقراءة للقرآن الكريم.

• وكان أكثرهم ورعا، وطلبا للحلال من الكسب!

• رغب عن وظائف الخلفاء[1]، ورضى أن يعيش تاجر خز (حرير).

• وعرض عليه القضاء من قبل أمراء بنى أمية، ثم المنصور فى عهد بنى العباس، فأبى، فسجنه وآذاه، حتى قيل: إنه مات فى سجنه!

وكان يعتذر بأنه لا يأمن من نفسه أن تزل.

• وقرأ عليه علماء الكوفة وبغداد.

• وتخرج عليه منها الأئمة من أصحابه:

كمحمد بن الحسن ، وأبى يوسف، وزفر.

• ومات رحمه الله ـ ببغداد سنة 150 هـ.

فتعال نتابع خطواته على الطريق منذ ولادته!، رحمه الله، وجزاه عنا خير الجزاء!

محمد إبراهيم سليم

(1) رغب عنها: انصرف، ورغب فيها: طلبها.

النشأة الأولى

فى «الكوفة» إحدى مدن العراق الكبرى ولد الإمام «**أبو حنيفة النعمان بن ثابت**» وسماه أبوه: «**النعمان**» تيمنا بأحد ملوك فارس!

فهو من أسرة فارسية ترجع إلى أصول أفغانية موطنها الأصلى مدينة «**كابل**» بأفغانستان!

وحين أنعم الله على جده «**زوظي**» بالإسلام دخل حلف «**بنى تيم الله بن ثعلبة**» وتأثر بما سمع من الإمام علي رضي الله عنه!، وكان معه، ومن أتباعه!

وورث «**أبوحنيفه**» عن أبيه وجده حبا لآل البيت صادف قلبا خاليا فتمكن منه!

وكان له من أستاذه وصديقه «**الإمام جعفر الصادق**» أسوة حسنة.

ولقد أوغر ميله إلى الأئمة من آل البيت صدور الأمويين والعباسيين عليه ـ على السواء ـ مما كان له أثره فى حياته كما سنرى فيما بعد!

مهنة الأب!

كان الأب «تاجرا كبيرا» من تجار الأقمشة وبخاصة الحرير!!

ويسمونه البر (بفتح الباء)، من يمارس هذه التجارة يسمى «**بزازا**». وهكذا وجد «**أبو حنيفة**» نفسه ـ وهو صبي ـ «**بزازا**» يعمل مع ابيه، ويعاونه، ويتردد معه على السوق..

ويلقى كبار التجار، ويحاورهم..

وإذا هو يتعلم أصول التجارة وأسرارها..

وإذا الفتى الأسمر الطويل النحيل يجذب إليه الأنظار، بحلته الفاخرة، وعطره الفواح!

وإذا هو يصبح موضع ثقة العملاء، بما كان يتمتع به من خلق حسن، وأدب جم، وكرم فى المعاملة.

توجيه الكبار

ذات يوم رأى الإمام الشعبي «**قاضى الكوفه**» أبا حنيفة ورأى فى عينيه ذكاء!

وفى شخصيته تفتحا ونضجا!

وفى آرائه خبرة الكبار، وحكمتهم!

فسأله: إلى من تختلف؟ (من أستاذك؟وعلى من تتردد؟).

فقال أبو حنيفة:

أختلف إلى السوق، فهناك «**كبارالتجار**»، أتلقى عنهم، وأتعلم منهم، وأستمد خبرتى وتجاربى!

فقال الإمام الشعبى:

لم أرد هذا، وإنما أردت:

من من العلماء تتردد عليه، وتتلقى العلم على يديه وتختلف إليه؟!

وهناك أبدى أبو حنيفة أسفه، لأنه كان قليل التردد على حلقات الدرس، ومجالس العلم، لاشتغاله بالتجارة و التردد على السوق، والاختلاف إلى كبار التجار!

فقال له «**الإمام الشعبى**» نصيحته التى غيرت مجرى حياته:

«**عليك بالنظر فى العلم.. ومجالسة العلماء..فإننى أرى فيك يقظة وحركة**».

وصادفت هذه النصيحة المخلصة هوى فى نفس أبى حنيفة، وعاد إلى بيته، وكأن كل شيء حوله يردد كلمات الشعبي:

- عليك بالنظر فى العلم!!
- وعليك بمجالسة العلماء!!

وحين أصبح الصباح وجد نفسه مشدودا إلى مجالس العلم والعلماء، وحلقات الدرس والبحث!

وسمع صوتا هاتفا من أعماقه:

هيا إلى حلقات العلم والعلماء!!

وكان للعلم ـ آنذاك ـ طريق واحد يمر من خلال تلك «الحلقات» التى تقام بالمساجد فى عواصم البلاد الإسلامية!!

حيث يضم «**المسجد الجامع**» كثيرا من الحلقات.. كل حلقة يجلس فيها عالم كبير، يتحلق من حوله طلابه، ومحبوه، والراغبوا فى علمه، فيستمعون إليه، ويلتقون العلم على يديه، وكأن على رءوسهم الطير!

والطالب النبيه يحوم حول تلك الحلقات كالنحلة، يبحث عن الأفضل ن ويمتص الرحيق من كل نبع يحلو له!، وما أكثر تلك الحلقات بالمسجد الجامع بالكوفه!

- فهذه حلقة لـ «**علم الكلام**» تبحث فى أصول العقيدة!
- وتلك حلقة «**للقرآن وتفسيره**».
- وعلى القرب منهما حلقة ثالثة «**للحديث النبوى الشريف**».
- وهذه رابعة «**للأدب والشعر**».
- وتلك خامسة «**للنحو والصرف**».
- وعلى مقربة منها سادسة «**للفقه وأصوله**».

وحار أبو حنيفة أمره!

إنها لتستهويه كلها.. بعد أن عرف ما يدور فى كل منها!

وبوده أن ينهل منها جميعا، وبخاصة الفقه.. فقه العبادات، وقفه المعاملات!

وكم كان يتمنى أن يكون له «الآذان «ما يمكنه من الاستماع إلى تلك الحلقات وتسجيل كل ما يدور فيها حتى لا يفوته شيء منها!

ولاعجب، فقد قال السابقون:

«منهومان لا يشبعان:

- طالب علم..
- وطالب مال..

إن به نهما (جوعا تعطشا) إلى العلم، وقد ذاق حلاوته. و من ذاق عرف!

ألا ما أبعد الفرق بين أولئك الذين كان يختلف إليهم فى السوق الكبير، وهؤلاء الذين رآهم فى مسجد الكوفة الكبير.. وشتان بين هؤلاء وأولئك!

لقد دله الشعبي على الخير.. والدال على الخير كفاعله!

حقا أن به نهما إلى «العلم» وهو به جدير، وله أهل!

أما «المال»، فقد ترك له أبوه عندما لقي ربه «**متجرا**» يدر عليه ربحا وفيرا.. ويتيح له أن يشبع نهمه من العلم!، ولكنه فى حاجة إلى من يديره!!

التوفيق بين العلم والتجارة!

لقد سمع أحد مشايخ الحلقات يقول لطلابه:

«**أعط العلم كلك يعطك بعضه!**

وأعطه بعضك لا يعطيك شيئا!»

إن كل ما يريده، هو توفير الوقت، لكى يتفرغ للدرس والتحصيل إلى جانب إدارة تجارته!

فكيف السبيل؟ وكيف يوفق بين العلم والتجارة؟!

إنه لا يريد أن يعطي العلم بعضه!

وهداه عقله إلى الحل!

لقد قرر أن يشرك معه فى «**المتجر**» من يديره، ويتولى شئونه!

ويكفى أن «**يشرف**» هو عليه حتى يتفرغ للبحث والدرس!

فقد يدعوه طلب العلم إلى الرحلة فى سبيل الحصول عليه، والتنقل بين العواصم الإسلامية للقاء «أهل العلم» فى البصرة، الكوفة، ومكة والمدينة..

حيرة!

ليس هناك شك فى أن «التجارة» قد فتحت عينيه على الكثير!

وعرف الجانب العملي فى «**فقه المعاملات!**».

وليس هناك من شك فى أنه تعلم من «**مدرسة الحياة**» كيف يكون التعامل مع الناس؟

والدين المعاملة؟

لكنه حائر بين تلك الحلقات!

بأيها يبدأ؟

إن «**العراق**» فى ذلك الوقت كان يموج بأصحاب الآراء، والأتجاهات!

وكان الجدل بين هؤلاء وأولئك يدور بين الحين والحين!

ومنهم من يهاجم الدين، ويشكك الناس فى عقيدة المسليمين!،

ويجادلهم بالباطل!

فيلتجه إلى «**علم الكلام**» الذين يبحث فى أصل العقيدة! ويتيح له إسكات أولئك المجادلين وإخراسهم!

إنهم يثيرون قضايا شائكة:

- هل الإنسان مسير أم مخير؟!
- ويتناولون صفات الله عز وجل.

واستهوته هذه الدراسة التى تجعله قادرا على مواجهة أعداء الدين، ومحاورتهم، ومواجهة الحجة بالحجة، ليوجه إليهم ضربات قاتله ، تسكتهم، وتخرسهم، وهو بذلك جدير!

وراح يتنقل بين البصرة والكوفة! ويقال: إنه دخل البصرة نيفا وعشرين مرة!

وكان أحيانا يقيم بها السنة أو أكثر، حتى تفوق فى دراسة «علم الكلام!».

لقد كان يعتقد فى قرارة نفسه أن «علم الكلام وأدب البحث والمناظرة» أجل العلوم!

فما ناظر أحدًا إلا وأفحمه، وأخرسه، وأقام الحجة عليه!

وقد استطاع الوقوف فى وجه أولئك الذين كانوا يجدلون بالباطل من الزنادقة، والخوارج وأصحاب الأهواء، وأعداء الدين! لقد حاولوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره! وإليك بعض ما دار بينه وبين الخوارج!

أبو حنيفة والخوارج

كان أبو حنيفة يوما بالمسجد فدخل عليه طائفة من الخوارج[1] شاهرين السيوف فقالوا: يا أبا حنيفة: نسألك عن مسألتين، فإن أجبت نجوت، وإلاقتلناك!

قال: أغمدوا سيوفكم، فإن برؤيتها ينشغل قلبى!

قالوا: وكيف تغمدها، ونحن نحتسب الأجر الجزيل بأغمادها فى رقبتك!

قال: سلوا إذن.

قالوا: جنازتان بالباب:

إحداهما: رجل شرب الخمر فمات سكران!

والأخرى: امرأة حملت من الزنا فماتت فى ولادتها قبل التوبة!

أهما مؤمنان أم كافران؟

فسألهم:

من أى فرقة كانا؟.. من اليهود؟

قالوا: لا.

قال: من النصارى؟

قالوا: لا.

قال: من المجوس[2]؟

قالوا: لا.

قال: ممن كانا؟

---

(1) الخوارج: هم الذين خرجوا علي الصف الإسلامي، وقرروا التخلص من علي و معاوية وعمرو بن العاص!

(2) الذين يعبدون النار و الكواكب وأطلق عليهم هذا اللقب منذ القرن الثالث الميلادى.

قالوا: من المسلمين.

قال: قد أجبتم!

قالوا: هما فى الجنة أم فى النار؟

قال: أقول فيهما ما قال الخليل ـ عليه السلام ـ فيمن هو شر منهما:

﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: 36].

وأقول كما قال عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118].

فنكسوا رءوسهم، وانصرفوا!!

ونجا أبو حنيفة من سيوفهم بعد أن نصره الله عليهم! بفضل إجادته فن المحاورة!، ومعرفته بفن البحث والمناظرة!

ترى هل يظل أبو حنيفة عاكفا على «**علم الكلام**» ليستطيع مجادلة الخارجين، والمارقين، والزنادقة، وما أكثرهم آنذاك؟ سوف!!

إذا عرف السبب بطل العجب

لقد نبغ أبو حنيفة فى «علم الكلام»!!

وأصبح قادرا على مجادلة أولئك الخارجين وإفحامهم، وردهم مقهورين!

لكن شيئا فى اعماقه كان يناديه..

لقد كان كالنحلة.. تحلق فوق الأزهار.. باحثة عن الرحيق..

وما أكثر الأزهار!

فعلى أيها تسقط؟

ومن أيها تمتص؟

ويحكى لنا «**أبو حنيفة**» ما كان يدور بنفسه آنذاك فيقول:

«كنت رجلا أعطيت جدلا فى الكلام!

فمضى دهر كنت فيه أتردد..

وبه أخاصم..

وعنه أناضل.. وكنت قد نازعت الخوارج..

وكنت أعتبر «**علم الكلام**» أفضل العلوم!

ثم علمت أنه لو كان فيه خير لتعاطاه السلف!

فهجرته!».

ترى ما تلك الزهرة التى أراد أن يمتص رحيقها؟!

سوف نرى!!

وقفة مع النفس

بعد أن وصل «**أبو حنيفة**» إلى ما وصل إليه من «**علم الكلام**».. وقف مع نفسه وقفة متأملة وأخذ يفكر فى هذا العلم الذى استنفد كل وقته! إن السابقين من الصحابة والتابعين لم يشغلوا أنفسهم بهذا العلم!!

ولو كان فيه خير لحرصوا على الاشتغال به فما باله يعطيه كل هذا الاهتمام؟!

حقا أن الإسلام «**عقيدة**» و«**شريعة**» لكن عقيدة الإسلام سهلة ميسرة لا تعقيد فيها: «**قل أمنت بالله، ثم استقم**» (رواه أحمد والترمذى).

أما الشريعة.. فهى معرفة الأحكام.. والحلال و الحرام.. إنها هى التى تستحق كل هذا الاهتمام.. تستحق بذل الجهد فى فهم النص، واستخراج الأحكام، واستنباطها، والأحكام بأدلتها. إن الناس هنا أحواج إلى من يفقههم فى دينهم، ويفتيهم فيما لا يعرفون حكمه!

إن كبرى حلقات المسجد الجامع بالكوفة يقوم عليها أكبر أساتذة الكوفة:

«أبو إسماعيل حماد بن سليمان»

أستاذ التشريع، والفقه.. والتفسير والحديث.. فما باله لا يسارع بالانضمام إليه، وتلقى العلم عليه، والجلوس بين يديه؟!

إنه يتصدر حلقة كبيرة فى المسجد، يشهدها العديد من الطلاب!

وما أكثر الذين يفدون عليه يسألونه فيما يعترضهم من مشكلات، فيجيبهم!

ويستفتونه فيما يجد عندهم من قضايا فيفتيهم..

إنه ليس فقيها عاديا مثل غيره من الفقهاء..

فرئاسة الفقه فى العراق قد انتهت إليه!! وهو وارث علم الصحابيين الجليلين:

1ـ على بن أبى طالب..

2ـ وعبد الله بن مسعود، رضى الله عنهما.

فلقد تلقى علمهما عن شيخيه:

1ـ عامر الشعبي. 2ـ وإبراهيم النخعي!!

التحول الكبير

يقول شاعرنا:

مـا بـين غمضة عـين وانتباهتها
يقلب الله من حـال إلى حال

لقد أصبح الشيخ «حماد بن سليمان «عالم الكوفة وفقهها الشخصية العلمية التى استحوذت على «أبى حنيفة»وتمكنت من نفسه، لما يتمتع بع من علم وفقه.

ومن أجل هذا لازمه أبو حنيفة مدة عشرين عاما ولم يفارقه حتى لقى الشيخ ربه!

لقد اختاره ليتخرج عليه فى الفقه والفتيا، وكيف لا، وقد وجد فيه ما يرضى طموحه العلمي! وقد وصفه «أبى حنيفة»بقوله:

«**حماد أعلم من رأيت!!**»

وما أكثر من رأى خلال رحلاته العلمية، وتنقلاته!!

هكذا كان الأساتذة!

كان «**حماد**» قد توسم فى تلميذه النجابة، والإخلاص للعلم ؛ فقربه إليه، وأدناه منه!

ويقول أبو حنيفة:

كنت أسمع «مسائل حماد»، فأحفظ قوله، ثم يعيدها من الغد، فأحفظها!!

فقال: لا يجلس فى صدر هذه الحلقة غير أبى حنيفة!!

«فلازمته حتى مات».

لقد كان «**أبو حنيفة**» مع أستاذه حماد يقوم بدور الأستاذ المساعد فى عصرنا!

والحق أن «**أبا حنيفة**» عندما أعجبه «**علم التشريع**» كان يتردد على الكثرين، ويغترف من علومهم وآرائهم آخذا خير ما عندهم.. حتى لقد وصفوه بأنه جمع علم الآخرين!

وكان ذلك قبل أن يبلغ الأربعين!

سن الأربعين!

إن سن الأربعين هى سن النضج!!

السن التى يبعث فيها الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مبشرين ومنذرين!

وها هو ذا أبو حنيفه يكاد يقترب من سن النضج، بينما قد اكتمل علمه وفقهه حتى إن أحد علماء عصره جادله ذات يوم، فلما وجده على علم قال له:

«**يا أبا حنيفة ؛ كل ما أخذناه مفرقا من القوم، وجدناه عندك جملة!!**».

وقد سئل أبو حنيفة ـ رضى الله عنه:

عمن أخذت العلم؟ ؛ فقال:

- عن أصحاب عمر عن عمر.
- وعن أصحاب علي عن علي.
- وعن أصحاب ابن عباس عن ابن عباس..

لقد جالس أصحاب أكابر الصحابة من التابعين، وأخذ عنهم الأحاديث.

ولقد أقبل الإمام أبو حنيفة على «**دراسة الفقه**».. من كل جوانبه!

فلم يترك شاردة ولا واردة إلا ألم بها حتى غدا من أكبر فحول الفقهاء والمجتهدين!

ومع ذلك فقد واصل الدرس والتحصيل. يعلم ويتعلم. وشعاره:

«**لا يزال الرجل عالما مادام يطلب العلم فإن ظن أنه علم فقد جهل!**».

إن أستاذه «**حمادا**» ذو مكانة رفيعة بين الفقهاء وأصحاب الحلقات.

وكيف لا وقد تلقى العلم على «إمام أهل الكوفة الأول»، والصحابي الجليل «**عبدالله بن مسعود**» رضي الله عنه ـ وهو من هو علما وفضلا! إنه صاحب المنزلة العظيمة عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، الذى أهدى به «أهل الكوفة»، وقال لهم: «**لقد آثرتكم به على نفسي**»!!

تجربة فريدة

ذات يوم ـ وأمام ظروف طارئة شديدة ألم بالشيخ حماد ما جعله يغيب عن الكوفة، ويصبح مكانه بالحلقة شاغرا (خاليًا).

وأقيم أبو حنيفة مكان أستاذه حتى يعود، وأصبح شيخًا للحلقة!

وملأ فراغ أستاذ..

وعندئذ فكر فى أن يستقبل بحلقة حين يعود!

لكنه لما عاد أستاذه أخبره أنه أفتى فى «ستين مسألة» لم تعرض له من قبل، فأجاب عنها!

وراجع ـ مع الأستاذ ـ تلك الفتاوى والإجابات فوافقه أستاذه على أربعين منها..

وخالفه فى عشرين!!

وقرر أبو حنيفة ألا يفارق شيخة حتى يموت!

ومات الشيخ، وأبو حنيفة فى سن الأربعين! سن النضج، والاكتمال..

فأصبح شيخا للحلقة بلا منافس!!

التلميذ يخلف أستاذه

لما مات «حماد» اتجهت الأنظار إلى أبى حنيفة لكى يخلفه ويجلس مكانه!، ويملأ فراغه الذى خلا بموته عن علم وجدارة! فدعاه أصحابه وزملاؤه فى الدراسة إلى «**خلافته**»..

فلم يكن هناك من هو أكفأ من أبى حنيفة لهذا المنصب الرفيع! وكان لابد أن يوافق..

وجلس للتدريس وإفتاء المسلمين..

وأظهر براعة واقتدارًا..

فشاع ذكره.. وفشا بين الجميع أمر.. وطارت شهرته..

وكثر الوافدون عليه من الطلبة!

وأصبحت حلقته أكبر حلقة فى مساجد الكوفة!

وأصبح ذكره على كل لسان..ويشار إليه بالبنان!

وصار ملء الأفواه والأسماع فى الأمصار الإسلامية!

وصار أبو حنيفة أشهر من نار على علم[1]..

الناس عيال فى الفقه على أبى حنيفة!

عن الشافعى ـ رضى الله عنه ـ أنه قال:

الناس عيال[2] على هؤلاء الخمسة:

- من أراد أن يتبحر فى «**الفقه**» فهو عيال على «**أبى حنيفة**» وكان أبو حنيفة ممن وفق له الفقه!
- ومن أراد أن يتبحر فى «**الشعر**» فهو عيال على «**زهير بن أبى سلمى**».
- ومن أراد أن يتبحر فى «**المغازى**» (الغزوات واليسر) فهو عيال على «**محمد بن إسحاق**».

(1) العلم: الجبل..والنار فوق العلم لا تخفي علي كل له عينان!

(2) العيال: جمع عيل (بياء مشددة) والعيل: أهل بيت الرجل الذين ينفق عليهم ، فهو لهم أب وإليه يعود الفضل.

• ومن أراد أن يتبحر فى «**النحو**» فهو عيال على «**الكسائي**».

• ومن أراد أن التبحر فى «**التفسير**» فهو عيال على «**مقاتل بن سليمان**».

(هكذا نقله الخطيب البغدادى كما ذكر ابن خلكان).

ويقول الشافعي رضى الله عنه:

قيل لمالك: هل رأيت أبا حنيفة؟

فقال: نعم، رأيت رجلًا لو كلمته فى هذه السارية: (الأسطوانة ـ العمود) أن يجعلها ذهبا لقام بحجته. والمراد: أنه قوى الحجة!

أبو حنيفة بين ماض وحاضر

لقد قضى «**أبو حنيفة**» ما يقرب من عشرين عاما يلقى «**دروس الفقه**» على يدى أستاذه حماد بالمسجد الجامع بالكوفة..

وتلقى على يديه أيضا «**دروس الحديث والتفسير**» بعد أن ترك «**علم الكلام**»

ولقد ظهرت بوادر نبوغه ـ فى حياة إمامه ـ حين أفقى «**حماد**» راكبًا ـ على غير وضوء ـ بأن يتيمم لصلاة المغرب حين تغيب الشمس إن لم يجد ماء.

وأفتا «**أبو حنيفة**» بأن يواصل السير حتى إذا خاف خروج الوقت تيمم.

وعمل الرجل بفتوى «**التلميذ**» ووجد الماء وتوضأ، وأدرك المغرب متوضئا.

وها هو ذا فى حلقته يتصدى للفتيا، وتلاميذه يتناقشون، ويتناظرون فى الحلقة.

أسلوبه الفريد فى التدريس

كان للإمام أبى حنيفة أسلوبه الفريد.. وطريقته الخاصة فى التدريس!

فلقد سبق علماء عصره بطريقته وأسلوبه الخاص.. إنه لم يسلك ـ كغيره من علماء عصره ـ طريقة المحاضرة والتدريس!!

تلك الطريقة التى يكون فيها هو المتكلم، وتلاميذه هم المستمعين..

طريقة التلقين. والحفظ..

لقد كان يعمد إلى بسط السألة المقررة..

ويثير مشكلاتها..

ويجادل تلاميذه فى حكمها..

فيد لى كل برأيه..

ويناقش رأى غيره!

حتى ينجلى الصواب، وتتضح الحقيقة، ويظهر الرأى!

وهو يدربهم على إبداء الرأى، واستنباط الأدلة، وإصدار الأحكام والمشاركة العملية!

فلا هو يستبد برأيه، وينفرد باتخاذ القرار..

ولا هو يرضى بأن يأخذ تلاميذه آراءه قضايا مسلمة!

ومما يدل على ذلك قوله عن رأيه:

«**هذا أحسن ما قدرنا عليه!**

فمن جاءنا بأحسن منه؟ فهو أولى بالصواب!».

لقد كان تلاميذه ـ فى حضرته ـ يقبلون على البحث والدرس كأنهم خلية نحل! لكل منهم دوره.. ولكل منهم حضوره ووجوده!

وقد يقضون فى المسألة الواحدة أيامًا ولياليَ ذوات العدد بلا كلل أو ملل..

فإذا ما انتهوا إلى رأى تهللوا بشرًا، وصاحوا فرحًا: الله أكبر!! الله أكبر!!

ثم سجلوا ماوصلوا إليه، ودونوه ليكون مرجعًا للسائلين!

لقد علمهم أبو حنيفة أن يقيموا فقههم على الاجتهاد..

وعلى التحرى الدقيق للروايات..

ومناقشة كل شيء..

وعدم الخضوع للمسلمات ما لم يؤيدها الدليل القاطع..

فإذا ما قدم الرأي..

كان وراءه ـ على الفور:

ما الدليل عليه؟

وإذا ما سيق الحديث.. راحوا يتساءلون:

عن رواته، ومدى عدالتهم، وصدقهم، قبل العمل به.. حتى إذا صح عندهم فهو مذهبهم.

وهكذا ظلت «**حلقة أبى حنيفة**» مؤتمر منعقدا على مدى ثلاثين سنة..

يدرس فيه تلاميذ أبى حنيفة «علم الفقة «ويبحثون السائل، وتفصيلها، ويتداولونها فيما بينهم كى يضيعوا لها أحكامها..

إن «**مدرسة أبى حنيفة وحلقته**» ما هى إلا امتداد للصحابى الجليل:

«**عبد الله بن مسعود**» رضى الله عنه..

لقد كان إمامًا لأهل الكوفة..

يميل إلى النظر فى المصالح، وتفهم النصوص وكان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) يقول:

«**اغد عالمًا، أو متعلما ولا تغد إمعة**[1] **فيما بين ذلك**».

إن الاستقلال والاجتهاد فى الفقه ميراث يتوارثه «أهل الكوفة» منذ عبد الله بن مسعودحتى جاء «أبو حنيفة» ووصلوا بهذا الميراث إلى غايته!، ومن هنا سموهم: «أهل الرأى».

نظرات فى التربية!!

لقد كان لأبى حنيفة نظرات فى التربية، فقد قال لتلميذه أبى يوسف:

- «من جاءك يستفتيك فى المسائل، **فلا تجب إلا عن سؤاله**[2].

ولاتضم إليه غيره، فإنه يتشوش عليه جوانب سؤاله».

وقال لأبى يوسف موجها إياه إلى طريقة التدريس:

«**وأقبل على متفقهتك**[3]**، كأنك اتخذت كل واحد منهم ابنا وولدا لتزيدهم رغبة فى العلم**».

ولم تتوقف الخدمات التى تقدمها «**حلقته**» على العناية بالناحية الفكرية والتهذيبية، بل كان يرعى تلاميذه ماليا.

كان يعتبر ما يقدمه لهم من أرباح تجاريه حقا لهم!!

ويقول لهم كلما أمدهم بنفقات:

«**أنفقوا فى حاجاتكم!!**

ولا تحمدوا إلا الله تعالى..

فإنها أرباح بضائعكم مما يجريه الله على يدي»

كل هذا هيأ للحلقة أسباب النجاح!

---

(1) الإمعة: الذى لا رأى له، وتراه مترددا تابعا لغيره يقول: أنا مع الناس!

(2) فكثير الكلام ينسى بعضه بعضا.

(3) طلابك: الراغبين فى النفقه على يديك.

إنها أول «**مدرسة نظامية**» يشهدها التاريخ الإسلامي وربما تاريخ البشرية كله.

كان «**أبو حنيفة**» صاحبها.. وأستاذها.. الذى يتولى أعباء التربية والتعليم، ويتحمل الفقات!

مجانية التعليم!!

هل تعلم أن أبا حفيفة ـ رضى الله عنه ـ كان يجمع المال من تجارته التى بارك الله له فيها ليتصدق به على تلاميذه؟!

وأنه كان يساعد العلماء الذين لا يجدون ما ينفقون ليحملوا راية العلم، ويتواصل عطاؤهم؟

رحمه الله!

كان إذا أنفق على عياله مالًا تصدق بمثله!

وإذا لبس جديدًا ألبس الشيوخ والعلماء!

وكان يرى أنه ينبغى لمن أنعم الله عليه أن يظهر أثر النعمة عليه!

وكان إذا أهدي إليه، كافأ المهدى بمثل ما أهدى أهدى أو ضعفه!

ثم قام بتقسيم «الهدية» وتوزيعها على تلاميذه!!

سرعة البديهة وحسن التخلص فى الواقف الحرجة!!

ذات يوم دعا الخليفة المنصور العباسى أبا حنيفة..

وبالمجلس «الربيع «صاحب الخليفة الذى كان يعادى أبا حنيفة..

فلما حضر أبو حنيفة، قال الربيع:

يا أمير المؤمنين: هذا أبو حنيفة، يخالف جدك عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما.

قال: فى ماذا؟

قال: إن جدك يقول:

إذا حلف الرجل ثم استثنى (قال: إن شاء الله) بعد يوم أو يومين، جاز الاستثناء!

وأبو حنيفة يقول: لا يجوز الاستثناء إلا متصلا باليمين! (أى فى نفس الوقت والمجلس وقبل أن ينصرف).

وهنا قال أبو حنيفة:

يا أمير المؤمنين، إن «**الربيع**» يزعم أنه ليس لك فى رقاب جندك بيعة!

قال المنصور: وكيف؟

قال: يحلفون لك، ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون (يقولون: إلا أن شاء الله)، فتبطل أيمانهم ويصبحون فى حل من بيعتك!

(بناء على نقضهم لها بعد عودتهم).

فضحك المنصور، وقال:

يا ربيع، لا تتعرض لأبى حنيفة!

فلما خرج أبو حنيفة، قال له الربيع:

أردت أن تسيط[1] بدمى؟!

فقال: لا، ولكنك أردت أن تسيط بدمى، فخلصتك وخلصت نفسى!

براعة أبى حنيفة!

وكان أبو العباس الطوسى سيئ الرأى فى أبى حنيفة.. فدخل أبو حنيفة على المنصور الخليفة.. وكثر الناس..

---

(1) ساط بدمه: خلطه ومزجه باللحم.

فقال الطوسى: اليوم أقتل أبا حنيفة!

فأقبل عليه فقال:

يا أبا حنيفة، إن أمير المؤمنين يدعو الرجل فيأمره بضرب عنق الرجل لا يدرى ما هو؟

أيسعه أن يضرب عنقه؟!

فقال أبو حنيفة على الفور:

يا أبا العباس، أمير المؤمنين يأمر بالحق أم بالباطل؟!

فقال: بالحق.

قال: أنفذ الحق حيث كان، ولا تسأل عنه!

وهناك قال أبو حنيفة لمن قرب منه: إن هذا أراد أن يوثقنى فربطته!

رفضه تولي القضاء

لقد كان أبو حنيفة يخشى أن يسخر قضاؤه لخدمة السلطان، وهو الذى سخر ماله، وعلمه، وذهنه، وزمنه، فى خدمة الدين!

وحينما دعى لولاية القضاء رفض.. ولم يستطع حاكم أو خليفة أن يسخر قلمه لخدمه جاهه وسلطانه..

لقد دعاه الخليفة الأموي «يزيد «فرفض..

وحبسه وعذبه ليحمله على القبول فلم يزده ذلك إلا إباء!!

ودالت «**دولة بني أمية**»... وبقى أبو حنيفة شامخًا كالطود!

وحين قامت «**دولة بنى العباس**» دعاه «**أبو جعفر المنصور**» لولاية قضائه!

وإليك مادار بينهما..

أبو حنيفة والخليفة المنصور

طلب المنصور أبا حنيفة فأراده[1] على القضاء..

وحلف ليلين[2]، فأبى! وحلف إنى لا أفعل!

فقال الربيع الحاجب:

ترى أمير المؤمنين يحلف، وأنت تحلف[3]؟!

قال: أمير المؤمنين على كفارة يمينه أقدر مني[4]!

فأمر به إلى السجن!

فمات فيه ببغداد!

ويقال: إنه حين امتنع قال له الخليفة المنصور:

أترغب عما نحن فيه؟

فقال: لا أصلح!

قال: كذبت.

قال: فقد حكم علي أمير المؤمنين على أنى لا أصلح.

فإن كنت كاذبا فلا أصلح. وإن كنت صادقا، فقد أخبرتكم أنى لا أصلح.

إمام أهل الرأى!

كان بالكوفة جماعة من المسلمين يرجعون الحكم فى كل أمر إلى الكتاب العزيز، وإلى السنة مكتوبة وهى الأحاديث، أو مأثورة فى صورة أفعال.

وكانوا يسمون: «**أهل الحديث**».

(1) أراده: أجبره.

(2) ليلين: ليتولين.

(3) هذا لا يليق!

(4) قادر على التكفير عن يمينه إذا حنث.

• وإلى جانب هؤلاء كانت هناك جماعة أخر تقول «رأيها «فيما يجد من مشكلات لا نص فيها من قرآن أو حديث!!

• وكانوا يرون أن رقعة البلاد قد اتسعت، ودخل فى الإسلام أشتات من الناس مختلف الأجناس والثقافات، فجدت أمور، واستحدثت مشكلات فى البيئات الجديدة لم يألفوها من قبل، ولا عهد لهم بمثلها فى بيئتهم!!

وارتكبت جرائم غريبة على مجتمعهم إلى غير ذلك من أمور لم يشر إليها القرآن..

ولم يرد لها ذكر فى الأحاديث النبوية!

فكان الفقهاء يتناقشون فى المسالة، ثم يخرجون منها برأي يطبقونه فيما بينهم. وسمى هؤلاء «أهل الرأي».

وكان على رأس هؤلاء «**الإمام أبو حنيفة**»..

• فقد كان عظيم الحجة..

• قوي البرهان.

• واسع العقل والإدراك.

• إذا لم يجد من الكتاب والسنة ما يسعفه أعمل «الرأي «فى كحمة، وروية ونزاهة، واتزان!

أبو حنيفة والشافعى

عرفنا أنه كان لأبى حنيفة النعمان منحى خاص تمكن بفضله من تزعم «**مدرسة أهل الرأى فى العراق**».

ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل.

أتدرى ماذا قال فيه الإمام الشافعى عالم قريش الذى ملأ طباق الأرض علما؟

لقد جاء فى ديوانه:

لـقـد زان الـبـلاد ومـن عليها
إمـام المسلمين «أبـو حنيفة»
بـأحـكـام واثـار وفـقـه
كـايـات الـزبـور عـلى الصحيفه
فـما بـالمـشرقـين لـه نـظـير
ولا بـالمـغـربـين ولا بكوفه
فـرحمـة ربـنـا أبـدا عليه
مـدى الأيـام مـا قرئت صحيفه

مذهبه الفقهى

مذهب أبى حنيفة النعمان أشهر المذاهب الأربعة، التى يجرى المسلمون على أحكامها.

وعليه تجرى المحاكم الشريعة بمصر فى قضائها..

والأصول التى يقوم عليها مذهبه هى ـ كما شرحها بنفسه قائلا:

1ـ إنى آخذ أولا بما فى القرآن.

2ـ فإن لم أجد فيه الحكم فبسنة رسول الله (ﷺ).

3ـ فإن لم أجد فى كتاب الله، ولا فى سنة رسوله رجعت إلى ما انفق عليه الصحابة.

فإن اختلفوا أخذت من أقوالهم ما كان قريبا من القرآن والسنة!

4ـ فإن لم أجد للصحابة رأيا لم آخذ بقول أحد من التابعين، بل أجتهد رأيى، فهم رجال، ونحن رجال!

نظرة مجملة على توزيع

مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان (*)

هذا المذهب يسير عليه فى الوقت الحاضر نحو: ثلث سكان العراق (والثلثان الآخران: شيعة عرب، وشافعية أكراد).

ويسير على مذهب أبى حنيفة كذلك جميع الأتراك فى العالم.

فكل تركي مسلم حنفي المذهب، فيسير عليه الأتراك فى تركيا، وفى تركستان، ويسير عليه أهل أفغانستان وبخارى، وكذلك معظم مسلمى باكستان، وكذلك معظم مسلمى الهند.

ويسر عليه كذلك بعض الأفراد فى تونس، وأفراد فى مصر، ومعظم المصريين الأحناف من الأزهريين الذى درسوا على مذهب أبى حنيفة أملا فى أن يكونوا قضاة. شرعيين: فقد كان منصب القضاة الشرعيين فى العصر التركى، وفى مرحلة طويلة من بعده وقفا على رجال المذهب الحنفى.

من أهم خصائص هذا المذهب كثرة اعتماده على القياس.

من أكثر تلاميذ أبى حنيفة عملا بالقياس:

«**زفر**» ولذلك يقولون: «**أقيس من زفر**» وأشهر تلاميذ أبى حنيفة الذين يرجع إليهم الفضل فى تدوين مذهبه ونشره:

(1) أبو يوسف قاضى القضاة. (2) ومحمد بن الحسن الشيبانى.

(3) وزفر.

ومحمد بن الحسن ليس فقيها فحسب، بل هو أيضا من كبار المحدثين، وله رواية جيدة لموطأ مالك، وهو ليس فقيها إسلاميا فحسب، بل هو فقيه

(*) بحوث فى الإسلام. د. على عبد الواحد وافى بتصرف.

عالمى، تألفت جماعة فى ألمانيا من كبار رجال القانون لإحياء تراثه، وإشاعة فقهه!

أبو حنيفة كما وصفة عارفوه

كان أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ حسن الوجه، حسن الثياب.. طيب الريح!!

كثير الكرم.. حسن المواساة لإخوانه..

كان يعرف بطيب الريح إذا أقبل، وإذا خرج من داره!.

ورعة العالى

كان ـ رضى الله ـ لا يجلس فى ظل جدار غريمه ويقول:

«**كل قرض جر نفعا فهو ربًا**»[1].

وفاؤه لمن علموه!

«**لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل**».

وكان «**حماد**» أستاذ أبى حنيفة أهلًا للفضل..

وكان أبو حنيفة ذا فضل..

عرف فضل أستاذه عليه فى حياته وبعد مماته..

يقول الإمام الفاضل أبو حنيفة:

«**ما صليت صلاة منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والدي**».

ولقد تعلمنا أن نقول حين حين ندعو:

«**اللهم اغفر لوالدي وأصحاب الفضل علي**».

(1) هذا لفظ حديث شريف وراه الحارث عن سيدنا على رضى الله.

والغريم: الدائن، والجمع غرماء. والورع: الابتعاد عن المحرمات.

فهل آن الأوان لنحارب «موجة النكران» لأهل الفضل من الآباء.. والمعلمين.. وممن أخذوا بأيدينا، ووقفوا إلى جانبا حتى عرفنا الطريق؟!

لقد كان «**أبو حنيفة**» يتحلى بمكارم الأخلاق حتى أن هارون الرشيد عندما وصف له أبو حنيفة قال:

«**هذه أخلاق الصالحين!**».

وأمر بكتابتها.. وكلف ابنه حفظها..

بم وصفه تلميذه أبو يوسف؟

وصف أبو يوسف ـ قاضي القضاة في الدولة العباسية لهارون الرشيد ـ أبا حنيفة، فقال:

- كان ـ على علمي به ـ شديد الدفاع عن المحارم!
- شديد الورع[1] أن ينطق في دين الله بلا علم!
- يجب أن يطاع الله تعالى.
- ولا ينافس أهل الدنيا فيما بين أيديهم.
- طويل الصمت.
- دائم الفكر.
- مع علم واسع.
- لم يكن مهذارًا ولا ثرثارًا[2].
- إن سئل عن مسألة كان له علم بها أجاب، وإلا قاس[3]، مستغنيا عن الناس.

(1) الورع: التحرج، والتوقي عن المحارم، ويقال لمن كف عن الحلال المباح ورع.

(2) هذر الرجال في منطقه: تكلم بما لا ينبغي، والمهذار من يكثر في كلامه من الخطأ والباطل ؛ يقال: المكثار مهذار: والثرثار: الذي يكثر الكلام في تكلف، وخروج عن الحد.

(3) قاس: أي إذا عرضت له مسألة فقهية لم يسبق لها حكم قاسها على مسألة لها حكم معروف إذا اشتركتا في علة هذا الحكم، ومبرراته، ومسوغاته.

• لا يميل إلى طمع.

• ولا يذكر الناس إلا بخير.

ويبلغ هذا الوصف الذى وصف به القاضى أبو يوسف أبا حنيفة..

يبلغ «**شريك أبى حنيفة فى التجارة**» فيقول بعد أن خبره ثلاثين عامًا:

جالست أنواع الناس من العلماء، والفقهاء، والزُّهاد، والنساك، وأهل الورع، فلم أجد أحدًا منهم أجمع لهذه الخصال من أبى حنيفة!!

ألسنة الخلق أقلام الحق!

• ويقول عنه الإمام الذهبى:

عني بطلب الآثار[1]، وارتحل فى ذلك.

وأما الفقه، والتدقيق فى الرأى وغوامضه، فإليه المنتهى، والناس عليه عيال[2] فى ذلك.

ويقول شعبة بن الحجاج:

كان ـ والله ـ حسن الفهم، جيد الحفظ، ولد سنة ثمانين فى حياة صغار الصحابة، ورأى أنس بن مالك لما قدم عليهم الكوفة.

ولم يثبت له حرف[3] عن أحد منهم.

كان خزازًا يبيع الخز..

• وقال يحيى بن معين: كان أبو حنيفة ثقة لا يحدث بالحديث إلا بما يحفظه..

ولا يحدث بما لا يحفظ.

وعن أبى يوسف: كان أبو حنيفة ربعة يفتح الراء (لا هو بالطويل ولا بالقصير).

---

(1) الآثار: جمع أثر، ويطلق على ما خلفه السابقون، والخبر المروي، والسنة الباقة.

(2) هو لهم بمنزلة الأب الذى يعولهم.

(3) حديث.

• ومن أحسن الناس صورة.

• وأبلغهم نطقا..

• وأعذبهم نغمة (بسكون الغين).

• وأبينهم عما فى نفسه..

يقول ابنه حماد:

كان أبى جميلًا، تعلوه سمرة، حسن الهيئة، كثير التعطر، هيوبًا ، لا يتكلم إلا جوابًا، ولا يخوض ـ رحمه الله ـ فيما لا يعنيه.

• ويقول ابن المبارك:

ما رأيت رجلًا أوقر فى مجلسه، ولا أحسن سمتا[1] وحلما من أبى حنيفة.

وكان يسمى «**الوتد**»[2] لكثرة صلاته.

وقام ليلة يردد قول الله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر:46].

ويبكى ويتضرع إلى الفجر.

• وقد ضرب غير مرة على أن يتولى القضاء فأبى.

وكان يقول:

• ما جاء عن الرسول فعلى الرأس والعين..

• وما جاء عن الصحابة اخترنا..

• وما جاء من غير ذلك فهم رجال، نحن رجال!

وكان يقول:

لا ينبغى للرجل أن يحدث إلا بما يحفظه من وقت ما سمعه.

(1) السمت (بفتح السين المشددة): الهيئة، وماهو عليه من سكينة ووقار.

(2) ما رز في الأرض. ولك أن تفتح التاء أو تكسرها.

• ويقول على بن عاصم:

لو وزن علم الإمام أبى حنيفة بعلم أهل زمانه لرجح عليهم.

• وقال حفص بن غياث:

كلام أبى حنيفة أدق من الشعر، لا يعيبه إلا جاهل.

• وقال ابن المبارك:

أبو حنيفة أفقه الناس.

• وقال الشافعى:

الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة!

• وعلق الإمام الذهبى على ذلك بقوله:

قلت: الإمامة فى الفقه ودقائقه مسلمة إلى هذا الإمام، وهذا أمر لا شك فيه.

وليس يصح فى الأذهان شيء
إذا احتاج النهار إلى دليل

وسيرته تحتمل أن تفرد فى مجلدين!

رضى الله عنه ورحمه.

توفى شهيدًا مسقيا فى سنة خمسين ومئة وله سبعون سنة.

ما هكذا يطلب العلم!!

لم يكن أبو حنيفة ينتظر توصية أو واسطة لتعليم متعلم..

كما أنه لم يكن ينتظر سائلا ليبذل من ماله!

لقد كان يبذل من ذات نفسه!

والناس عنده سواء!

لقد جاء مرة رجل بكتاب «تويصة» لكى يحدثه فى العلم، ويعلمه مما علمه الله!

فلما قرأ كتاب التوصية قرع حامله، وأبنه، قائلا: ما هكذا يطلب العلم!!

لقد أخذ الله العهد والميثاق على العلماء ليبيننه للناس، ولا يكتمونه!

ثم قال: إن العالم لا يكون له خواص يختصهم بعلمه!

فينبغى أن يعلم الناس، ويريد بتعليمه وجه الله!

وهكذا كان أيضا موقف «مالك «من الشافعى عندما حمل إليه خطاب توصية! من والى مكة. ألا ليتنا نغلق هذا الباب!.

شدة خوفه من الله

قال يزد بن الكميت:

كان «**أبو حنيفة**» شديد الخوف من الله تعالى..

فقرأ بنا على الحسين المؤذن فى العشاء الأخيرة سورة «**إذا زلزلت**»، وأبو حنيفة خلفه!!

فلما قضى الصلاة، وخرج الناس نظرت إلى أبى حنيفة وهو جالس يتفكر ويتنفس.

فقلت: أقوم لا يشتغل قلبه بى..

فلما خرجت، تركت القنديل، ولم يكن فى إلا زيت قليل!

فجئت ، وقد طلع الفجر، وهو قائم، قد أخذ بلحية نفسه، وهو يقول:

يامن يجزى بمثقال ذرة خير خيرًا..

ويا من يجزى بمثقال ذرة شر شرًا..

أجر النعمان عبدك من النار، ومما يقرب منها من السوء وأدخله فى سعة رحمتك.

قال: فأذنت، وإذا القنديل يزهو وهو قائم، فلما دخلت قال:

تريد أن تأخذ القنديل!

قلت: أذنت لصلاة الغداة (الصبح).

فقال اكتم على ما رأيت!

وركع ركتعتين، وجلس حتى أقمت الصلاة، وصلى معنا الغداة على وضوء أول الليل.

هكذا كان الأستاذ مع تلاميذه!

خرج «**أبو حنيفة**» ذات ليلة من صلاة العشاء ونعله فى يده!

فتحدث إليه تلميذه «**زفر**» فى مسألة!

فيبقيا يتناقشان فيها حتى نودى لصلاة الفجر وهما قائمان!

فرجعا إلى داخل المسجد وأديا «**صلاة الفجر!**» وبعد الصلاة عادا إلى مسألتهما يبحثانها من جميع الوجوه.. ومازالا على ذلك، حتى استقرت السألة على رأى أبى حنيفة!

ولا عجب فقد توافر له من الزمن والجهد ما بذله لعلمه ولتلاميذه.. فكان للناس إماما، ولتلاميذه خير قدوة! وهكذا كان يسخو بعمله.. ووقته وجهده!

هكذا كان الإمام!

قصص تصور حياته لمن شاء
الاقتداء به!

أبو حنيفة والشاب الذى خطأه!

حكى أحد رواد حلقته ما شاهده ذات يوم فقال: كنت عند «أبى حنيفة»وهو فى مجلسه، وعنده أصحابه..

فجاء «الشاب «فألقى عليه «مسألة «(سأله).

فأجابه أبو حنيفة بما يراه..

فقال له الشاب: أخطأت يا أبا حنيفة!!

فسكت!

فعاد الشاب يسأله مرة أخرى عن مسألة أخرى.. فأجابه أبو حنيفة..

فقال الشاب: أخطأت يا أبا حنيفة!

وعند ذلك قلت لمن حوله من أصحابه:

سبحان الله!

ما بالكم لا تعظمون شيخكم وتبجلونه؟!

قالوا: وكيف تحكم علينا بهذا؟!

فقلت: يجيء شاب فيخطئه، وأنتم سكوت!

فالتفت إلى أبو حنيفة وقال:

«دعهم، فقد عودتهم هذا من نفسى!».

وضعت عند بابك شيئا هو لك!

كان «أبو حفيفة» مثال التاجر الأمين الذى بارك الله له فى تجارته، فشكر الله على ما أعطاه فزاده كسبا حلالا.. فأنفقه فى سبيل الله، كما كان يفعل أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ بثروته!

لقد نزلت برجل ضائقة، فتجلد لها، وتحمل، حتى عضه الجوع، هو وزوجته، وابنته!

فماذا يفعل؟ والى أين يذهب؟

إنه يعرف عن «**أبى حنيفة**» سماحته وكرمه.. فليذهب إلى حلقة درسه لعل الله يأتى بالفرج على يديه!

وتوجه الرجل إلى ««أبى حنيفة»».. وجلس لكنه لم يشارك.. فقد عقد الحياء لسانه.. ولم يستطيع أن يبوح لأبى حنيفة بما جاء من أجله.. وقام من مجلسه عائدًا إلى بيته!

لكن أبا حنيفة كان لماحًا ذكيا..

فأدرك بذكائه، وفطنته ما كان يدور بنفس الرجل!!

فتبعه إلى بيته.. حتى عرف بيته..

وعاد أبو حنيفة وهو يفكر فى أمر هذا الرجل الذى منعه حياؤه من أن يفضي إليه بشيء!

وأعد له «صرة» فيها خمسة آلاف درهم .. وحملها فى ظلام الليل إلى بيت هذا الرجل الحيي!

وطرق باب الرجل..

وقال له: وضعت عند بابك شيئا هو لك!!

ورجع مسرعًا دون أن يكشف له عن شخصيته!

وقبل أن يراه الرجل إبقاء على ماء وجهه!

وأخذ الرجل «**الصرة**» وفتحها.. فإذا فيها خمسة آلاف درهم..ومعها «**بطاقة صغيرة**» فيها هذه العبارة:

«**هذا المقدار جاء به أبو حنيفة إليك من وجه حلال.. فليسترح بالك!**»

لقد كان أبو حنيفة بحق.. إمامًا..

وأراك تسأل:

لو تعهد أئمتنا وأساتذتنا، وعلماؤنا رواد حلقاتهم ومجالسهم.. كما كان أبو حنيفة يفعل ـ أكلن يبقى على الساحة شقي أو محروم؟!

أين رابطة العلم فى عالمنا؟!

إن العلم رحم بين أهله!

فأين صلة الرحم؟

فلنبدأ نحن الأساتذة بأنفسنا قبل أن نشكو «موجة العقوق والنكران «فى أبنائنا وتلاميذنا!!

أبو حنيفة وابنه حماد

كان يعامل ابنه حمادًا كما يعامل تلاميذه!

فقد تقدم ابنه حماد ذات يوم ايصلي بالناس إماما!

فأخذ أبو بمجامع ثوبه.. وأخره عن موقف الإمام!

وقدم غيره يرى أنه أجدر بالإمامة وأولى من ابنه حماد.

فقال حماد: يا أبت تفضحنى؟!

فقال له أبو حنيفة أبوه:

بل أردت أن تفضح نفسك ؛ فمنعتك!

إذا لو صليت فقال قائل:

أعيدوا صلاتكم خلف هذا، فسوف يسطر فى الكتب، ويبقى عاره ألى يوم القيامة!!

فإلى أولئك الذين يقدمون أبناءهم على ذوى النبوغ والتفوق، ويحولون بينهم وبين أمل قد اقترب، وثمرةٍ قد حان قطافها بعد أن سهروا على رعايتها سنوات وسنوات!!

إليهم نسوق قصة أبى حنيفة مع ابنه حماد..

أبو حنيفة والرجل الذى سبه

ذات يوم كان أبو حنيفة فى المسجد..

فقام رجل فى ناحية من نواحى المسجد، وأخذ يسبه!

فما قطع أبو حنيفة حديثه.. وعندما انصرف إلى بيته تبعه الرجل يشتمه.. ويصيح.. وأبو حنيفة لا يرد عليه حتى بلغ داره!

وعند ذلك، وقف أبو حنيفة أمام باب داره، واستقبل الرجل بوجهه قائلا:

هذه دارى.. وإنى أريد الدخول.. فإن كنت ستتم باقى كلامك فأتمه، حتى لا يبقى شيء مما عندك..

فخجل الرجل.. وقال: اجعلنى فى حل مما قلت!!

فقال له أبو حنيفة: أنت فى حل!

فانصرف الرجل، وكأن شيئا لم يكن!

أبو حنيفة و جاره

كان لأبى حنيفة جار بالكوفة إسكاف (يصلح الأحذية) يعمل نهاره أجمع!

حتى إذا جنه الليل رجع إلى منزله، وقد حمل لحما فطبخه، أو سمكة فيشويها..

ثم لا يزال «يشرب»، حتى إذا «دب الشراب فيه «غرد بصوت وهو يقول:

أضاعونى وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهة، وسداد ثغر

فلا يزال يشرب، ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم!

وأبو حنيفة كان يصلى الليل كله..

وذات ليلة، فقد أبو حنيفة صوته، فسأل عنه:

فقيل: أخذ العسس (الشرط) منذ ليال وهو محبوس!

فصلى أبو حنيفة صلاة الفجر، وركب بغلته ، واستأذن على الأمير!

فقال الأمير: ائذنوا له، وأقبلوا به ركبًا!!

ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط ببغلته!

ففعل!

ولم يزل الأمير يوسع له فى مجلسه، وقال:

ما حاجتك؟

قال: لى جار «**إسكاف**» أخذه العسس منذ ليال، يأمر الأمير بتخليته!

فقال: نعم وكل من أخذ معه فى تلك الليلة إلى يومنا هذا.. فأمر بتخليتهم أجمعين!

فركب أبو حنيفة، والإسكاف يمشى وراءه.

فلما نزل أبو حنيفة، مضى إليه، وقال:

يافتى، هل أضعناك؟

قال: لا بل حفظت ورعيت، جزالك الله خيرا عن حرمة الجوار، ورعاية الحق.. وتاب الرجل.. ولم يعد إلى ما كان عليه!

أبو حنيفة وأمه

مات أبوه قبل أن يشتد عوده!

كما مات والدا الشافعى، وأحمد بن حنبل فى طفولتهما!

وبقيت أمه الفاضلة ترعاه.. وترشده.. وتوجهه.. وتقف إلى جانبه!

وكان للأم فى حياة الثلاثة أثرها الواضح، فقد أصبحوا أئمة للناس!

وكان أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ حريصًا على أن يرضيها لما يكنه لها من حب عميق.. فنراه يحملها على دابة.. ويسير بها المسافات البعيدة لكى تصلي خلف «إمام» ترى له فضلًا على ابنها.. بينما يعتقد ذلك الإمام الفقيه أن ابنها أبا حنيفة أفضل منه فقها وعلمًا!

وكان «أبى حنيفة» يفتيها حين تستفتيه أحيانًا! فلا ترضى بفتواه!!

حتى لقد انطبق عليها وعليه ذلك المثل: «زامر الحي لا يطرب»!

وتأمره أن يحملها إلى «أحد الوعاظ «فيصحبها إليه عن طيب خاطر!!

وذات يوم تعجب ذلك الواعظ منها قائلا:

«**أفتيك ومعك فقيه الكوفة؟!!**».

وهكذا ظل أبو حنيفة فى جميع مراحل حياته حريصا على إرضاء أمه ؛ لما كان يعتقده من أن «الجنة تحت أقدام الأمهات «(رواه أحمد والنسائى).

وأن رضا الأم من رضا الله..

فلم يكن يرد لها طلبا.. حتى إذا عذب فى سبيل رأيه، طلبت منه أمه أن يتفرغ للتجارة.. وينصرف عن «الفقه»..وقالت له:

«**ما خير علم يصيبك بهذا الضياع؟!**

وهنا ـ فقط ـ قال لها:

إنهم يريدوننى على الدنيا.. (يجبروننى ويكرهونني) وأنا أريد الآخرة!!

وإننى أختار عذابهم على عذاب الله!!

ولكم تحمل أبو حنيفة من عذاب!

وفى السجن تذكر أمه الحزينة من أجله فبكى من أجلها!، ولما سئل قال:

والله ما أوجعتنى السياط! بل تذكرت دموع أمى فآلمتنى دموعها!

أبوحنيفه والعجوز

جاءته مرة امرأة عجوز تريد شراء ثوب!

ورجته أن يترفق بها فى ثمنه!

وهنا عرض عليها «أبى حنيفة»ثوبا، وقال لها:

ما هو ذا طلبك!

فقالت المرأة: كم ثمنه؟

فأجاب أبو حنيفة: إنه بأبعة دراهم فقط!

وظنت المرأة أنه يهزأ بها!

فقالت: أتسخر منى وأنا عجوز لا حيله لى؟! إن الثوب أغلى من ذلك بكثير!!

فقال أبو حنيفة: حاشاى أن أسخر منك!

إن هذا هو ثمن الثوب! قالت: وكيف ذلك؟

قال: لقد أشتريت ثوبين فبعت أحدهما بالثمن كله إلا أربعة دراهم! وهذه الدراهم الأربعة هى ما أطلبه منك ثمنا للثوب الباقى!

عادت المرأة تحمل الثوب الذى كانت تحلم بمثله ولا قدرة لها على شرائه!

لقد أسعدها أبو حنيفة.. ذلك التاجر القنوع الذى يرضى من الربح بالقليل ويؤمن بأن: «**الصدقة الخفية فى البيع والشراء!!**»

لقد كان أبو حنيفة ينظر إلى «**نعمة المال**» فى يده.. كما كان ينظر إلى «**نعمة العلم**» فى عقله!

لقد كان يرى أنه لا يتمتع بإحداهما إلا إذا شارك فيها غيره!، فالعلم عطاء الله..والمال عطاء الله!

فكما كان يفيض بعلمه على تلاميذه، فإنه كان يغدق عليهم وعلى غيرهم من ماله!

فإذا كسا نفسه حلة جديدة.. كسا أحد العلماء مثلها!

فأين علماء اليوم.. بل أين التاجر من أبى حنيفة التاجر والعالم؟!

حماد بن أبى حنيفة

كان حماد بن أبى حنيفة ذا علم ودين وصلاح وورع تام.

وليس أدل على ورعه وأمانته، وعفة نفسه من أنه لما توفي والده كان عنده ودائع كثيرة واهلها غائبون!

ترى ماذا فعل حماد؟

لقد نقلها إلى الحاكم ليسلمها، ويكون مسئولًا عنها!

فقال له: بل دعها عندك فإنك أهل لذلك.

فقال حماد: زنها، واقبضها حتى تبرأ ذمة الوالد، ثم افعل ما ترى!

ففعل القاضى ذلك، وبقى فى وزنها وحسابها أياما، واستتر حماد فما ظهر حتى أودعها القاضى عند أمين!

ولا عجب.. فمن شابه أباه فما ظلم!!

وفاء الأئمة!

يوم لقى «**الإمام أبو حنيفة**» ربه ولد «**الإمام الشافعي**» سنة 150 هـ وعاش الشافعى ليتتلمذ على «**الإمام مالك**» بالمدينة وليلقى «أصحاب أبى حنيفة» بالعراق ويدرس فقه الإمام!

وها هى ذى أبيات تعبر عن وفاء الشافعى وقد أشرنا إليها من قبل حيث يقول فى أبى حنيفة:

لقد زان البلاد ومن عليها
إمام المسلمين أبو حنيفة
بأحكام وآثار وفقه
كآيات الزبور على الصحيفه
فما بالمشرقين له نظير
ولا بالمغربين، ولا بكوفه
فرحمة ربنا أبدًا عليه
مدى الأيام ما قرئت صحيفه

ومع بقية أئمة الفقه الأربعة نتابع رحلتنا حيث نلتقى بالإمام مالك، ثم بالإمام الشافعى، وأخيرا بالإمام أحمد بن حنبل.

وما دمنا سنتناول «**حياة أئمة الفقه الإسلامى**» أراك فى حاجة إلى دراسة تمهيدية عن «الفقه والفقهاء «ليكتمل العمل، وتتحقق الفائدة المرجوة لمن يريدون التفقه فى الدين!.. وقد ألحقناها بكتابنا عن الإمام مالك.

فتعال نتم ما بدأناه، والله الموفق.